



'Abd as-salām bin 'Aḥmad Allujā'ī Al-'umrānī. - *Al-mafākhīr al-'aliyya waddurar al-ssaniyya fī ad-dawla al-ḥasaniyya al-'alawiyya* (ar-Ribat: wizārat al-'awqāf washshu'un al-'i slāmiyya, 2018), 2. Vols., 1047p.

عبد السلام بن أحمد اللجائي العمراني.. المفاخر العلية والدرر السنية في الدولة الحسنية العلوية (الرباط: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2018)، في جزئين، 1047ص.

صدر عن منشورات وزارة الأوقاف والشؤون

الإسلامية بالرباط، (أواخر 2018)، كتاب المفاخر العلية

والدرر السنية في الدولة الحسنية، في جزئين (1047صفحة) لمؤلفه عبد السلام بن أحمد اللجائي العمراني (ت. 1332هـ/1914م)، وهو في الأصل عمل تحقيقي نال به الباحث محمد دريدي شهادة الدكتوراه في التاريخ، من كلية الآداب بالرباط (موسم 2004-2005م). ويأتي هذا العمل في سياق دراسة المخطوطات وتخريجها، لأهميتها عند المؤرخ، إذ تنفرد كثير من المصادر بمعطيات تاريخية ونصوص ووثائق تكون غير معروفة تماما، مما يفتح نوافذ جديدة في حقل البحث التاريخي، وقد تحتوي رسائل تفصح عن تفاصيل ظلت مبهمة، أو نصوصا من مؤلفات أصبحت في حكم الضائعة أو المفقودة. كما تفيد في معرفة جوانب من حياة مؤلفيها، ومن هنا تأتي أهمية تخريج المخطوطات وتحقيقتها. ولذا فإن إحياء أي كتاب تراثي وبعثه إلى الوجود مجددا بغية الاستفادة مما جاء فيه، بعد أن كان حبيس الأرشيفات وخزائن المخطوطات، هو عمل ذو فائدة، يستحق عليه الباحث كل التشجيع والتقدير.

ويدخل مؤلف المفاخر العلية ضمن كتب التاريخ العام، حيث أدرج فيه مؤلفه التاريخ البشري عموما وتاريخ المغرب خصوصا، وتناول فيه -فضلا عن الأوضاع السياسية وغيرها- الجوانب الروحية والفكرية في مغرب القرن التاسع عشر، متخذًا من فاس نموذجا، وهما جانبان لم يحظيا بالاهتمام عند معاصريه، ولذا كان المخطوط حريا بالتحقيق والدراسة، وهو ما اضطلع به الباحث محمد الدريدي الذي أمارت اللثام عن واحد من أهم المصادر التاريخية المغمورة. وقد قدّم في قسم الدراسة شذرات مسهبة عن سيرة المؤلف عبد السلام اللجائي، وكان إلى حدود تلك اللحظة مجهولا لدى غالبية الباحثين، بل هناك من لم يسمع به قط، لأن غالبية المصادر لم تترجم له، وهناك من كان يخلط بينه وبين الفقيه النوازي الغالي اللجائي صاحب كتاب مقمع الكفرة بالسنان والحسام في بيان إيجاب الاستعداد وحرب النظام.

خلف الكاتب الفقيه عبد السلام اللجائي العمراني إنتاجاً متنوعاً شمل ميادين متعددة، غير أن أهم ما ألفه في مجال التاريخ كتابه المفاخر العلية، وفيه نسج على منوال كتابات معاصريه في التأليف للسلطان المنوّه به، أمثال: أحمد بن الحاج السلمي في كتابه الدر المنتخب في بعض مآثر أمير المؤمنين مولانا الحسن، ومحمد بن إبراهيم السباعي في كتابه البستان الجامع لكل نوع حسن وفن مستحسن وعلي السوسني السملالي في كتابه مطالع الحسن واتباع السنن، والحسين بن عبد الرحمان السوسني في كتابه الفتوحات الوهبية في سيرة مولانا الحسن السنية وفخر اختراعاته البهية، ومحمد بن أحمد الندرومي في كتابه الدرّة السنية في ذكر الدولة الحسنية، وأحمد بن عبد الواحد ابن المواز في المقالة المرضية في الدولة العلوية، وغيرها من المؤلفات التي تناولت مناقب السلطان المولى الحسن وآثاره.

وكان قصد عبد السلام اللجائي العمراني في كتابه المفاخر العلية هو التأريخ لعصر السلطان المولى الحسن تحديداً، بيد أنه مهد لذلك بمقدمة وخمسة أبواب، ورام في بداية تأليفه التعريف بالتاريخ، ولذا خصص له الباب الأول بأكمله، وفيه ابتغى إعطاء معنى شمولي لمفهومه، موضحاً موضوعه والغرض منه وفائدته، غير أن ذلك لم يخرج عن نهج من سبقه من الفقهاء والكتاب والإخبارين، إذ نقل في هذا الباب ما قيل في مدح فن التاريخ، مميزاً بين اعتناء المغاربة بالدراية والمشاركة بالسند، وقد أعجب بطريقة أحمد المقرئ الذي اعتنى بأحوال المجتمع بقوله: "كان سيدي أحمد المقرئ معتنياً بالأخبار حتى أنه اتخذ رجلاً عنده بنفقتة وكسوته وما يحتاج إليه، على أن يكون كلما أصبح ذهب يستقريء البلد أسواقاً ومساجد ورحاباً وأزقة، وكلما رأى أمراً يخبره به ليلاً، على هذا كان أيام مقامه بمصر." وبعد هذه التوطئة انتقل عبد السلام اللجائي سريعاً إلى الحديث عن تاريخ العالم قبل البعثة النبوية في الباب الثاني ابتداءً من أول الزمان، وتطرق فيه إلى أخبار الأنبياء والتقسيم الجغرافي للأرض وعرج على اهتمام اليونان بالعلوم والاقتصاد. وقد أكثر في هذا الفصل من الاستطرادات المليئة بالأساطير والحكايات العجيبة، قبل أن ينتقل إلى الحديث عن دول الإسلام بالشرق والأندلس والمغرب إلى حدود الباب السادس، وذلك بطريقة مختصرة. ومن الباب السابع بدأ التأريخ لدولة العلويين، فخصّ الباب التاسع منه لفترة السلطان المنوّه به، وتوسع في ذكر منجزاته وشمائل أعماله وعظيم أخلاقه، وعرفّ بوزرائه وكتابه وبعض أطبائه. كما تناول الحديث عن خزانته وما فيها من مخطوطات وكتب. غير أن المؤلف في هذا الفصل تحديداً يتيه في استطرادات كثيرة قد تُشتت ذهن القارئ، وتُنسيه أحياناً الموضوع الأساسي الذي ينوي تناوله. أما الباب العاشر، فقد ساق فيه مواضيع تتعلق بالعدل والحلم والعمو والتفقه في الدين، نهج فيه نهج كتب الآداب السلطانية، حيث أكثر من النقول والأقوال التي وردت في ذكر محاسن هذه الخصال.

وكان عبد السلام اللجائي مُقتصدا جدا في ذكر الأحداث السياسية والعسكرية، بيد أنه أسهب في الحديث عن الجوانب الثقافية، وهذا من أهم مميزات المفاخر العلية مقارنة بباقي الكتب التي ألفت في عصره. ولا يخلو الكتاب من بعض القضايا التي انفرد بها، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، قضية الخلاف بين الطريقة التيجانية والطريقة القادرية، حيث أورد في هذا الصدد رسالة البكاي لأكنسوس، وجواب الأخير عليه. ونقل لنا بعض الأجوبة الكاملة للعلماء عن استفتاء السلطان المولى الحسن بشأن تسريح تجارة التبغ. كما سرد مواقف العلماء وأوجبتهم بشأن استهلاك المسلمين لمادة الأفيون ودخان الطابة. ومن الإشارات النادرة في المفاخر العلية حديث الناس عن قيام نائر في الهند يُقاتل النصارى الإنجليز، زعموا أنه المهدي المنتظر آخر الزمان.

وأهم ما يميز كتاب عبد السلام اللجائي حديثه المستفيض عن الحياة العلمية خلال القرن التاسع عشر، حيث أتى على ذكر تراجم عدد كبير من العلماء والفقهاء والقضاة في عهد السلطان المولى الحسن بفاس ومكناس. وقبل هذا، وضع المؤلف لائحة بأسماء العلماء مبرزا فيها المواطن الجغرافي الذي ينحدر منه كل عالم وصفته وتخصصه ومؤلفاته وأماكن تدريسه والطرق التي يعتمد عليها في التلقين. وبهذا يكون اللجائي قد أعطى للحياة الفكرية بالمغرب عموما وبفاس ومكناس خصوصا الحيز الذي تستحقه. ولم يستثن الحديث عن الأحوال الروحية بالمدينتين، حيث يحضر الأولياء ورجال التصوف ورجال الزوايا، وأيضا المجاذيب، إذ عرض سيرة من اشتهر منهم عبر تاريخ المغرب، وتوقف عند عدد من أسماء مجاذيب عصره ذكورا وإناثا ممن ترجم لهم، ساردا بعضا من كشوفاتهم وتنبؤاتهم الغيبية، مبرزا علاقتهم بأفراد المجتمع.

ونجد من بين أهم المواضيع الفقهية المستحدثة التي تناولها الكتاب نوازل التبغ والمعونة وإصلاح الجيش. وما يؤخذ على المؤلف في كتابه هذا ما يتخلله من استطرادات طويلة أحيانا وبعيدة عن مناسبة الحديث، على أنه لما وصل إلى عصره وما قاربه، قدم معلومات جديدة عما عايشه وانتهى إليه خبره، والأهم في الكتاب كما سبقت الإشارة استيعابه لأحوال النشاط العلمي بمدينة فاس خلال القرن التاسع عشر.

وبعد أن استكمل المؤلف عبد السلام اللجائي سنة 1888م تأليف كتابه أهداه إلى السلطان المولى الحسن، فاستحسنه وكافأه عليه، جريا على العادة المتبعة لدى أسلافه، ومُفتتح المفاخر العلية قول المؤلف: "الحمد لله الذي جعل الملوك نعمة على جميع المسلمين ونصرة لأركان الإسلام وشرائع الدين" وآخره: "وتمحو به الكفر وتملك به الكافرين وأن ترزقنا بركته."

ويعتبر كتاب المفاخر العلية من أهم المصادر التاريخية عن فترة النصف الثاني من القرن التاسع عشر، لكنه ظل محكوما بالخصائص التقليدية المتداولة في هذا النوع من الكتابات، فالمؤلف، باعتباره ينتمي إلى الفئة المندمجة جملة وتفصيلا في بنية السلطة، جعلته يتجنب كل ما يمكنه إثارة استياء المترجم له وحفيظته، وعلى العكس من ذلك، لم يجد غضاضة في تحميل عامّة القبائل والدول الأجنبية مسؤولية الأوضاع السيئة للمغرب في القرن التاسع عشر. ومهما يكن، فإن هذا المصدر يمنحنا ما هو أهم من كل هذا، إذ يكشف لنا طبيعة العقلية التي ميّزت فئة كتّاب السلاطين خلال الفترة المدروسة، فكتاباتهم وأشعارهم المنظومة تعكس بعضا من الأدوات التي ارتكز عليها المولى الحسن لتعزيز سلطته المركزية، فأغلب ما سَطَّرَ، في هذه الفترة، كان نزولا عند رغبة السلطان، وهو أمر أفصح عنه غالبية الكتّاب. وإذا كان من البديهي القول بأن بناء النص من شأن الكاتب وحده، فإننا نتلمس أثر السلطان من خلال عتبات العناوين، والمقدمات، والأبواب التي يحفل بها كتاب المفاخر العلية، وبالخصوص في الباب التاسع منه. وحتى وإن لم يكن المولى الحسن قد أوعز بشكل مباشر لعبد السلام اللجائي بتأليف كتابه، فإن هذا الأخير خطّه بغرض التقرب إليه ونيل حظوته، حيث يُعبر صراحة في بداية تأليفه بأنه أراد منه خدمة المولى الحسن، وهو ما يوضحه عنوانه المسجوع، وقد خص للدولة العلوية تحديداً أزيد من ثلثي الكتاب، وجعل الجزء الأوفر منه في سيرة السلطان المنوه به.

لقد أمر المولى الحسن بعد استلامه نسخة من المفاخر العلية بتعيين مؤلفها مدرسا بمدينة العرائش، شمال المغرب، حيث التحق بها سنة 1889م، ثم عاد إلى فاس للتدريس بها بعد أن تمت ترقيته إلى طبقة أساتذة الدرجة الثانية سنة 1898م. وفي عهد خلفه المولى عبد العزيز تم تعيينه قاضيا بتازة سنة 1902، وخلالها تعرض لمحتتين قاسيتين مرتبطتين ببعضهما، فقد تزامن تواجده بالمدينة المذكورة مع دخول المتمرد الجيلاي الزرهوني المدعو بوحمارة إليها، فأرغم على مبايعته والخطبة باسمه مكرها. وعندما تمكنت قوات المولى عبد العزيز من استرجاع المدينة من قبضة الثائر، تعرض اللجائي للإهانة على يد هذه القوات التي اعتقلته داخل منزله مجردا من لباسه، دون احترام شيبته ومكانته، إلى أن سرّحه الوزير المهدي المنبهي. وبعد هذا الحادث عاد إلى فاس ثانية، حيث تمت ترقيته إلى عالم من الدرجة الأولى، وهي مرتبة كبيرة، تحوّل لصاحبها مكانة رمزية بين أقرانه، ويتمتع صاحبها بصلات سلطانية قارة نقدية وعينية، ومنها صلات غذائية تغطي معظم حاجياتهم الضرورية، وفي مقدمتها القمح الذي كان يشكل أساس التغذية في المغرب آنذاك، كما كانت الدولة تتكفل بمعونتهم السنوية، وتعتني بكسوتهم. وقد ظل في حيازته كرسي التدريس في جامع القرويين بعد مسيرة حافلة، واستمر فيه إلى حين وفاته سنة 1914م، حيث دفن بباب الفتوح.

وعلى الرغم من صغر حجم مؤلف المفاخر العلية والدرر السنية في الدولة الحسنية العلوية، مقارنة بضحامة كتابي أحمد بن الحاج السلمي ومحمد بن إبراهيم السباعي، فإنه يبقى كتابا مفيدا للباحثين ليس في مادة التاريخ فقط، وإنما أيضا في الفقه والأدب والنحو والتراجم والتصوف، وكذا في جوانب الحياة الروحية والثقافية والفكرية بمغرب القرن التاسع عشر، وهي الجوانب التي توسّع في إظهار تفاصيلها أكثر من غيرها، وهذا أمر لا نجده في باقي المصادر الأخرى التي أرخت لهذه الفترة.

خالد طحطح

باحث في التاريخ، طنجة